دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م/١٣٣٣هـ

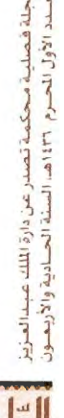
من وجهة نظر بريطانية

أ. د. خالد بن حمود السعدون
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الشارقة

حلت قبل شهور الذكرى المئوية لقيام الحرب العالمية الأولى(١)، وكان ارتماء الدولة العثمانية في أتونها مؤذنًا باختفائها من الوجود وممهدًا لإعادة تقسيم ممتلكاتها بين الدول الأوربية الكبرى التي كانت تتحين الفرصة لبسط نفوذها على هذه المنطقة الواسعة المساحة الوفيرة الخيرات ذات الموقع الإستراتيجي في قلب العالم القديم. وحين حققت

(قدم للنشر في ١٤٣٥/٧/٢٧هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٥/١٢/٢٨هـ).

(١) شبت شرارة الحرب حين أعلنت النمسا - المجر الحرب على صربيا في الثامن والعشرين من يوليو ١٩١٤م. [يحيى جلال، **التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر**، الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث، د. ت.، ج٣، ص٢٠] . ويعد بعضهم دخول ألمانيا الحرب إلى جانب النمسا في الأول من أغسطس ١٩١٤ هو البداية الحقيقية للحرب. [مانفرد، أ.، **موجز تاريخ العالم**، ترجمة محمد عيتاني، بيروت: دار الفارابي، ١٩٨٩م، ج١ - مجلد ٢، ص٢٩٠].



تلك الدول مطامحها مع نهاية تلك الحرب أورثت العرب واقعًا ما زالوا يعيشون في ظله حتى اللحظة ويكابدون مراراته الناتجة من "سايكس - بيكو" و "وعد بلفور". فيحسن بالعرب - والأمر كذلك - الوقوف عند تلك الذكرى والتمعن في أسباب ما حدث من أجل فهم أفضل لحقيقته وإدراك أعمق لتداعياته اللاحقة. ومما ييسر ذلك التمعن وجود تقرير مفصل رفعه لويس ماليت (Mallet) السفير البريطاني في إسطنبول حينئذ إلى وزير الخارجية البريطاني في العشرين من نوفمبر ١٩١٤م (الثاني من المحرم ١٣٣٣هـ)، أي بعد قرابة أسبوعين من دخول الدولة العثمانية الحرب. وحلل السفير في تقريره رؤيته الخاصة للأسباب التي دفعت الحكومة العثمانية لتبني خيار الحرب الباهظ الثمن.

وقد لقي هذا التقرير تقديرًا كبيرًا من لدن الحكومة البريطانية حتى عدته ذا فائدة للدفاع عن موقف بريطانيا وحليفاتها من الدولة العثمانية قبيل ارتمائها في أتون الحرب، ولذلك صدرت الأوامر بنشره وتوزيعه للقراء بثمن بخسٍ. وسيعتمد هذا البحث على إيراد نص ذلك التقرير كاملاً ويشفعه بإبداء ملاحظات وتعليقات على ما يرد فيه من معلومات لمقارنتها بما يرد في مصادر معاصرة أخرى فضلاً عن مراجع مهمة ودراسات حديثة حتى تتاح للقارئ فرصة التحرر من آصار وجهة نظر طرف واحد من أطراف القضية. كما أن إيراد بعض تلك الملاحظات أمر ضروري من أجل إلقاء مزيد من الضوء على أمور وردت مجملة في ثنايا التقرير وتحتاج إلى مزيد من الإيضاح.

بدأ السفير ماليت تقريره[٢] قائلاً: "لي الشرف أن أبين الظروف التي سبقت مغادرتي إسطنبول في الأول من نوفمبر وما رافق تلك المغادرة. فعند عودتي إلى مقر عملي في السادس عشر من أغسطس، أي بعد أسبوعين من نشوب الحرب الأوربية، كان الوضع يدعو بالفعل للخشية من أن تسوق ألمانيا تركيا عاجلاً أو آجلاً حليفة لها للارتماء في الحرب. كانت القيادة العليا للجيش العثماني المناطة بأنور باشا[٣] الواقع

---

(2) IOR, L/P+S/10/463, Miscellaneous No. 14 (1914), Dispatch from His Majesty's Ambassador at Constantinople summarizing events leading up to rupture of relations with Turkey, and reply there to. Presented to both Houses of Parliament by Command of His Majesty. December 1914.

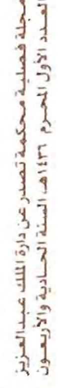
ومن المفيد القول إن الحكومة البريطانية أمرت بنشر هذا التقرير بصفته دفاعًا عن موقفها تجاه الدولة العثمانية، فأصبح منذ نهاية سنة ١٩١٤م يباع في بريطانيا ومستعمراتها والولايات المتحدة وقارة أوربا بسعر ١,٥ بنس [١/ ٢٤٠ من الجنيه الإسترليني].

(٣) أنور باشا (١٨٨١- ١٩٢٢م)، كان من ضباط جمعية الاتحاد والترقي عند انقلابها على السلطان عبدالحميد الثاني في ١٩٠٨م، هيمن على مقدرات الأمور في الدولة العثمانية بين سنتي ١٩١٣ و١٩١٨م، وساق الدولة العثمانية نحو دخول الحرب العالمية الأولى. راجع:

Anver Pasa, Britannica, Academic Edition: http://www.britanneca.com/

تولى أنور منصب وزير الدفاع ورئاسة الأركان العامة في يناير ١٩١٤م. راجع:

Oncu, Adip, *The beginnings of Ottoman - Germany partnership: Diplomatic and military relations between Germany and the Ottoman Empire before the First World War, a master thesis submitted to Department of History*, Bilkent University, Ankara, September 2003 (hereafter: the beginnings), p. 64: http://www.thesis.bilkent.edu.tr/0002417.pdf .





كليا تحت السيطرة الألمانية(٤) قد أعلنت التعبئة العامة(٥). وعلى الرغم من أن الحكومة العثمانية أعلنت عزمها على التزام جانب الحياد فإنها لم تتخذ خطوات ملائمة لصونه.

---

(٤) يبدو السفير مبالغًا بعض الشيء في جعله أنور باشا مسيطرًا عليه "كليا" من الألمان. ويشارك بعض المؤرخين الغربيين في توجيه تهمة التواطؤ مع الألمان لأنور باشا [انظر على سبيل المثال: لنشوفسكي، جورج، **الشرق الأوسط في الشؤون العالمية**، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ١٩٦٤م، ص٦٢]. ولكن رسالة ماجستير أعدها طالب تركي قبل عشر سنوات لا تجعل الأمر تواطؤًا بل نتاج ميل شخصي للألمان تدرج من إعجاب ذلك الضابط بالمؤسسة العسكرية الألمانية إلى أن وصل إلى قناعة بأن مصلحة الدولة العثمانية تقتضي التزام جانب هذه الدولة المدججة بالسلاح التي بدت كأنها لا تقهر، وتنفي الرسالة عن أنور باشا أنه مجرد أداة بيدي ألمانيا. راجع:

The beginnings, p. 64 , p. 71 & p.100.

(٥) حين أعلن القيصر الروسي نيقولا الثاني التعبئة العامة لجيشه في الحادي والثلاثين من يوليو ١٩١٤م قام أنور باشا بإعلان التعبئة العامة للجيش العثماني. انظر:

Ottoman Empire enters the First World War, NZ History: http://www.nzhistory. net.nz/war/ottoman-empire/enters-the-war

وجاءت تلك الخطوة حيطة أن تؤخذ على حين غرة. راجع :

Antonius, G., *The Arab Awakening*, Beirut, 1969, p. 136.وقد نص قرار إعلان التعبئة على سريان مفعولها بدءًا من الثالث من أغسطس ١٩١٤م، انظر:

History of the Great War based on official documents : Principal Events 1914- 1918, compiled by the Historical Section of the Committee of Imperial Defence, London, printed & published by His Majesty's Stationary Office, 1922. Hereafter : History of the Great War: http://www.naval-history.net/ Recited on 22.4.2014, 11.15 am.

بل إنها على العكس من ذلك عرضت للخطر قدرتها على فعل ذلك حين سمحت في العاشر من أغسطس بدخول سفينتي الحرب الألمانيتين غوبن (Goeben) وبريسلاو (Breslau) إلى مضيق الدردنيل[٦]. وقد أكدت الأحداث ما كنت أنا وزميلاي الفرنسي والروسي نطبعه دائمًا في ذهن الصدر

---

(٦) طرادان ألمانيان تفاديا مطاردة سفن الأسطولين البريطاني والفرنسي لهما في المياه الدولية بالبحر المتوسط وطلبا سماح السلطات العثمانية لهما بدخول مضيق الدردنيل للاحتماء بالمياه الإقليمية العثمانية لكونها مياه دولة محايدة. [لنشوفسكي، **الشرق الأوسط في الشؤون العالمية**، ص٦٤]. وكانت قواعد القوانين الدولية وبنود المعاهدات العثمانية مع الدول الأخرى تلزمها بإخراج الطرادين من الخدمة الحربية حتى نهاية الحرب وإعادة ملاحيهما إلى بلدهم، أو إجبارهما على العودة إلى المياه الدولية بعد أربع وعشرين ساعة من دخولهما مياهها الإقليمية.

IOR,L/P&S/10/462, No. 701-5, The Secretary to Government of India in the Foreign and Political Department, Simla, to the Political Resident in the Persian Gulf, Bushire, dated 6.9.1914.

وتتضارب الروايات في كيفية السماح للطرادين بدخول الدردنيل، إذ يفيد موقع التاريخ الرسمي لنيوزيلنده أن ذلك تم بعد مفاوضات دقيقة، وبالرغم من اعتراضات الصدر الأعظم سعيد حليم باشا.

http://www.nzhistory.net.nz/war/ottoman-empire/enters-the-war.

في حين تنقل دراسة أكاديمية تركية ما ورد في برقية السفير الألماني في إسطنبول لحكومته بتاريخ الرابع من أغسطس عن صدور أمر أنور باشا وزير الحربية للسلطات العسكرية في الدردنيل بالسماح لسفن الحرب الألمانية والنمساوية بالمرور من المضيق، أي إن ذلك الأمر قد صدر قبل ستة أيام من دخول الطرادين المعنيين.

The beginnings, p.83.



الأعظم(٧) وأذهان وزراء آخرين في حينه من أن استمرار بقاء الأميرال الألماني وطاقمي الملاحين على ظهري السفينتين الحربيتين الألمانيتين سيجعل الحكومة الألمانية سيدة الموقف وفي مركز يمكِّنها من جعل يدي الحكومة التركية مغلولة في أي لحظة تراها مناسبة لذلك.

ولكن الصدر الأعظم أعار أذنًا صماء لذلك التحذير، ولم يكن ممكنًا في أي وقت إقناع سموه بالاعتراف بعجزه عن السيطرة على التطورات التي كان هو نفسه يعارضها فضلاً عن أنها لم تنل موافقة جماعية من الحكومة كلها. من المرجح أنه كان مخلصًا في قناعته، ولكنه مدرك تمامًا لطبيعة مركزه المتقلقل ولحقيقة أن أي محاولة جادة من جانبه لمناوأة سياسة أنور باشا والسلطات الحربية تعني إزاحته. وذلك - لو وقع -

(٧) سعيد حليم باشا حفيد محمد علي باشا حاكم مصر. ولد في القاهرة سنة ١٨٦٣م وتوفي في روما في ديسمبر سنة ١٩٢١م. تولى الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) في الدولة العثمانية بين ١٩١٣ و١٩١٦م.

Said Halim Pas, Britannica, Academic Edition:

http://www.britannica.com/.

وقد اتسم دوره خلال تلك الأيام الحاسمة في حياة الدولة بالارتباك والتردد. إذ كان في الثالث والعشرين من يوليو يلح على السفير الألماني في إسطنبول للتحالف مع ألمانيا خوفًا من الخطر الروسي. وقاد في الأيام الموالية المفاوضات السرية مع الجانب الألماني، التي أدت إلى عقد معاهدة دفاعية بين الجانبين وقعها بنفسه في الثاني من أغسطس دون إطلاع أغلب زملائه الوزراء عليها. ولكنه بعد تسارع الأحداث الدافعة بالدولة نحو الحرب حاول كبح جماح أنور باشا دون فائدة. راجع :

The beginnings, pp.74-77, 93-94.

يعني إيصال الأمور فورًا إلى ذروتها، وهو ما كان مناقضًا لسياسة الدول الحليفة الساعية لتأخير دخول تركيا الحرب لأطول أمد ممكن إن لم تستطع تجنبه بشكل كامل. إذ إن ذلك الدخول سيثير قضايا واسعة ومعقدة متصلة بالمسألة الشرقية(٨). وبناءً على ذلك كان دوري، ودور زميليَّ الفرنسي والروسي اللذين عملت معهما بانسجام تام طوال الوقت، مقتصرًا بالضرورة على مجرد الاحتجاج ومحاولة فضح المكائد الألمانية وإفشالها.

كانت لدى ألمانيا خطة معدة سلفًا منذ زمن طويل جعلتها تمارس على الفور أقصى درجة من الضغط على تركيا لإكراهها على الحرب. فقيل لها إن الانتصار الألماني في الحرب الأوربية أمر مؤكد. وأوحي لها بأن التهديد الروسي الدائم لتركيا سيمكن تفاديه عن طريق التحالف مع ألمانيا والنمسا(٩). وصور لها إمكان استعادة مصر للإمبراطورية [التركية](١٠)،

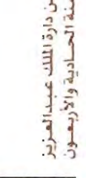
---

(٨) تتمثل المسألة الشرقية في تدهور الدولة العثمانية خلال القرن الثامن عشر وما بعده وتنافس الدول الأوربية القوية على اقتسام إرثها. راجع: مانفرد، **موجز تاريخ العالم**، ج١، المجلد ٢، ص ٧٢.

(٩) لقد أدى الخوف العثماني المتأصل من جارتها روسيا القيصرية دورًا كبيرًا في إبعاد القادة العثمانية عن معسكر دول الحلفاء الذي كانت روسيا عضوًا أساسيًا فيه. ففضلًا عن العداء التاريخي المتراكم عبر القرون تسربت للمسؤولين العثمانيين أخبار خطة أعدتها لجنة عليا روسية لاحتلال مضيقي الدردنيل والبسفور وقدمتها للقيصر نيقولا الثاني في مارس ١٩١٤م. راجع:

The beginnings, pp.66-71.

(١٠) يصر كثير من الكتاب الغربيين، يتابعهم بعض العرب، على استخدام تسمية "الإمبراطورية التركية" بدلا من "الدولة العثمانية". والتسمية الأخيرة تسوغها الجوانب الموضوعية أكثر من سابقتها.



كما أن الهند وأقطار إسلامية أخرى صورت كأنها رازحة تحت حكم مسيحي، يمكن أن توقد فيها جذوة إمكانات غير متناهية تصب لمصلحة خلافة إسطنبول. وبذا ستخرج تركيا من الحرب الدولة العظيمة الوحيدة في الشرق، مثلما ستكون ألمانيا الدولة العظيمة الوحيدة في الغرب. هذا ما كانت عليه المزاعم الألمانية في جوهرها.

إن أنور باشا كان منذ البدء نصيرًا قويًا للتحالف الألماني؛ لأنه يسيطر على خياله مثلٌ أعلى شبه نابليوني، ولكونه يؤمن بجامعة إسلامية سياسية ولديه قناعة بتفوق الأسلحة الألمانية. أما مدى مشاركة زملائه الكثيرين وشخصيات قيادية أخرى خارج مجلس الوزراء له في وجهات نظره فأمر قابل للتخمين إلى حد ما. ولكن ربما يكون من المؤكد أن السلطان(١١) وولي العهد(١٢) والصدر الأعظم

(١١) هو السلطان محمد الخامس، واسمه الكامل محمد رشاد، ولد في إسطنبول في نوفمبر ١٨٤٤م وتوفي بها في يوليو ١٩١٨م. خلف أخاه السلطان عبد الحميد الثاني عند خلعه سنة ١٩٠٩م. ولكنه أظهر ضعفًا قياديًا واضحًا فترك مقاليد الأمور كلها بيدي زعماء جمعية الاتحاد والترقي. كان معارضًا لدخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى، ولكنه لم يقم بشيء عملي للحيلولة دون ذلك.

Mehmed V, Britannica Academic Edition:

http://www.britannica.com/

(١٢) الأمير يوسف عز الدين بن السلطان عبدالعزيز، ولد سنة ١٨٥٨م، وعندما نصب محمد رشاد سلطانًا سنة ١٩٠٩م، غدا الأمير يوسف وليًا لعهده حسب قاعدة الأسن من الأمراء. وتوفي في فبراير عام ١٩١٦م في ظروف غامضة، وقيل: إنه قتل من قبل الاتحاديين لمعارضته إياهم. راجع:

http://www.ottomanarchives.info/author/ottoman/page/50/

وجاويد بك(١٣) وأغلبية الوزراء وقسمًا مهمًا من جمعية الاتحاد والترقي(١٤) يقفون ضد مغامرة متهورة مثل شن الحرب على الحلفاء. يتعذر التحقق الدقيق من الوقت الذي رمى فيه طلعت بك(١٥)، العضو المدني الأكثر قوة في مجلس الوزراء والشخص الأكثر بروزًا بين قادة الجمعية، بثقله إلى جانب جماعة الحرب بشكل نهائي. لقد كان متعاطفًا معهم منذ البدء، ولكن دوره الفعلي في المراحل المبكرة اكتنفه الغموض. ولدي ما يدعوني إلى الاعتقاد بأنه ربما فكر

(١٣) وزير المالية حينئذ ابن تاجر من مدينة سالونيك، أصله من يهود الدونمة. كان معارضًا لدخول الدولة العثمانية الحرب [العسكري، جعفر، **مذكرات جعفر العسكري**، لندن: دار اللام، ١٩٨٨م، ص٥٤] استقال مع ثلاثة من زملائه الوزراء في ٣٠ أكتوبر ١٩١٤م، انظر:

The beginnings, p. 94.

(١٤) جمعية الاتحاد والترقي جمعية سرية تأسست سنة ١٨٨٩م بهدف إجبار السلطان العثماني على إعادة العمل بدستور ١٨٧٦م المعلق. نجحت في القيام بانقلاب عسكري في يوليو ١٩٠٨م وفرض مطلبها على السلطان عبدالحميد الثاني، ثم عزلته سنة ١٩٠٩م وهيمنت على مقدرات الأمور في الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. لمزيد من المعلومات عن الجمعية راجع:

Ahmed, Feroz, *The Young Turks : The Committee of Union and Progress in Turkish Politics*, 1908-1914, Oxford: Oxford Univ. Press, 1969.

(١٥) محمد طلعت، ولد سنة ١٨٧٤م في أدرنة ومات في مارس سنة ١٩٢١م في برلين. أحد قادة جمعية الاتحاد والترقي الكبار. أشغل منصب وزير الداخلية ثم غدا صدرًا أعظم (١٩١٧- ١٩١٨م). كان قبل قيام الحرب العالمية الأولى ميالاً لدول الحلفاء ولكنه تغير بعد قيامها بتأثير أنور باشا. راجع:

Talat Pasa, Britannica Academic Edition:
http://www.britannica.com/

لبعض الوقت في انتهاج سبيل وسطي يتيح تأجيل اتخاذ قرار لحين اتضاح نتيجة الحرب الأوربية. وربما كان في الواقع تواقًا لكسب مزيد من الوقت وللحصول على شيء أكثر صلابة من مجرد وعود مقابل مشايعة تركيا للقضية الألمانية. وهي وعود قدمت فعليًا وبسخاء كبير، ولكني لست مطلعًا هل كانت مصاغة بعبارات يمكن عدها ملزمة(١٦). ولكن من المؤكد على أي حال هو أن تردد طلعت بك قد أمكن التغلب عليه، فانضم بشكل واضح للمؤامرة الهادفة لإشعال حرب هذا الخريف. وكان انضمامه قبل نحو ثلاثة أسابيع من تفجر الأزمة.

ومهما كانت طبيعة وجهات النظر الفردية للوزراء أو غيرهم فإن الحكومة التركية لم تبذل جهدًا للتحرر من التأثير الألماني أو للحيلولة دون المضي قدمًا نحو خيار الحرب. ولكنها على العكس سمحت بتعزيز الدعامة المادية لذلك الخيار بعد أن أقيمت بإدخال السفينتين الألمانيتين اللتين أبقيتا تحت سيطرة ألمانية فعالة. بل سمحت فوق ذلك بجلب عنصر ألماني قوي إلى بقية الأسطول العثماني حتى قبل أن تقوم حكومة جلالته باستدعاء البعثة البحرية البريطانية(١٧)

---

(١٦) كانت آمال القادة العثمانيين أن تساعدهم ألمانيا بعد الحرب على حفظ أراضي الدولة كاملة وفي استعادة سيطرتها على الأقطار العربية ومد هيمنتها على أقطار أواسط آسيا المتحدثة بالتركية.

The beginnings, p.86.

(١٧) طلب الباب العالي سنة ١٩٠٨م من بريطانيا إعارته مستشارًا بحريًا للإشراف على إعادة تنظيم البحرية العثمانية. فتعاقبت ثلاث بعثات =

بعد أن خفض عددها إلى حد جعلها عديمة الفاعلية بناءً على أمر وزير البحرية [العثماني](١٨). فقد جُلب عدد كبير من الألمان من بلادهم دون لفت الأنظار قـــدر الإمكان لاستخدامهم في قلاع الدردنيل والبسفور وغيرها من المواقع الحساسة. كما استخدمت عدة سفن تجارية ألمانية أهمها كوركوفادو (The Corcovado) والجنرال (The General) مراكز اتصال واحتياطيًا لما قد أصبح واقعيًا أسطول البحر الأسود الألماني. وأمنت اتصالات سرية مع رئاسة الأركان العامة الألمانية عندما اندلعت الحرب عبر أجهزة اللاسلكي الخاصة بالسفينة كوركوفادو التي أرسيت مقابل السفارة الألمانية في ترابيا(١٩). وقد ظلت تلك السفينة تستخدم لهذا

= بحرية بريطانية إلى إسطنبول بين ١٩٠٩ و ١٩١٤م. وكانت آخرها بقيادة الأدميرال آرثر لمبوس حتى مغادرته في ١٤ من سبتمبر ١٩١٤م بناءً على أمر من حكومته.

Rooney, Chris, *The International Significance of British Naval Missions to the Ottoman Empire, 1908 - 1914, Middle Eastern Studies*, Vol. 34, no. 1 (Jan. 1998). Recited at 9:55 am. On 11.5.2014:

http://www.mtholyoke.edu/acad/intrel/rooney.htm

ولكن وثيقة رسمية بريطانية تفيد بأن مغادرته تمت طردًا من قبل السلطات العثمانية. انظر:

IOR, L/P&S/10/462, No. 701-5, op.cit.

(١٨) لم أجد في الوثائق المعاصرة ولا في المراجع المتاحة ما يدل على قيام العثمانيين بتخفيض البعثة البحرية البريطانية بهدف جعلها غير فاعلة قبل مغادرة لمبوس.

(١٩) من أجمل خلجان البسفور ويقع على شواطئه حي سمي باسمه. وكان أول من بنى فيه السلطان سليم الثاني (١٥٦٦- ١٥٧٤م) حيث =



الغـــرض وأغـــراض أخـــرى طوال المدة الخـــاضـــعـــة لهـذا الاستعراض على الرغم من احتجاجاتي العاجلة واحتجاجات زميلي الفرنسي والروسي. وتحركت سفن ألمانية أخرى كما تشاء رافعة العلم التركي كي تسهل تحركاتها أو لإخفاء هويتها الحقيقية حين تكون راسيةً في الميناء. وأنشئت إدارة في السفارة الألمانية لتأمين التجهيزات اللازمة لاستخدام الحكومة الألمانية وسفنها. وقد أجازت كل هذه الأمور حكومة تركية لينة الجانب بدت كأنها غير مبالية بالانتهاكات المتوالية لسيادتها، إن لم تكن مرحبةً بها.

وأظهر ضباط البعثة العسكرية الألمانية(٢٠) نشاطًا فائق القدرة على الأرض. إن تفوقهم في إدارات وزارة الحربية، مقرونًا بتعاونهم الوثيق مع الجماعة ذات التوجه الحربي، سهل عليهم تحصين مركز كان قويًا في الأساس. لقد كان أولئك الضباط بالتنسيق مع وكلاء آخرين من قومهم - أكثر استتارًا منهم - هم من هيئوا بشكل رئيس للاستعدادات

= أقام لنفسه فيه سقيفة صيفية [kiosk من الكلمة الفارسية - التركية "كشك"]. ونمت حول سقيفته قرية حتى غدت منتجعًا صيفيًا منذ القرن الثامن عشر. وتوجد في تلك الضاحية مباني القنصلية الألمانية. راجع:

Istanbul City Guide books.google.ae/

(٢٠) البعثات الحربية الألمانية ذات تاريخ طويل في الدولة العثمانية، إذ وصلت أولاها مطلع القرن التاسع عشر بطلب من السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م). ولكن تلك البعثات ازدادت عددًا وأهميةً في عهد السلطات عبدالحميد الثاني ثم في عهد جمعية الاتحاد والترقي منذ سنة ١٩٠٩م. راجع:

The beginnings, pp. 6-45.

الحربية في سوريا التي هددت مصر تهديدًا مباشرًا وغدت مبعثًا خطيرًا لانهماكي في الاحتجاجات وموضوعًا دائمًا لها.

وقد أصبح الدليل على وجود تلك الاستعدادات أكثر إقناعًا يومًا بعد يوم. إذ كان مبعوثون من أنور باشا موجودين على الحدود يقومون برشوة البدو ويعبئونهم. وكانت ذخائر حربية ترسل جنوبًا، ووضعت في رفح كتائب من الجيش النظامي، في حين أبقيت فرق جيشي سوريا والموصل(٢١) على أهبة الاستعداد للتحرك جنوبًا خلال وقت قصير من تلقيها الإيعاز. وتعج البلدات السورية بضباط ألمان وضعت تحت تصرفهم أموال كثيرة لإغواء الزعماء المحليين. ومن أجل توضيح شمولية الاستعدادات الألمانية أذكر خبرًا وردني من مصدر ثقة يفيد بصدور أوامر بإعداد تقدير لكلفة تجهيز أزياء عسكرية هندية في حلب تستخدم للإيهام بظهور قوات هندية بريطانية. وقد نقلت الإدارات المدنية في بلدات الساحل السوري بموجب توجيهات من الحكومة المركزية سجلاتها كافة وما تحت أيديها من أموال إلى الداخل. وأنذرت أسر مسلمة بوجوب مغادرة الساحل لتفادي نتائج قصف محتمل من الأسطول البريطاني. وكان الخديوي

(٢١) كان الجيش العثماني مقسمًا إلى سبعة فيالق (جيوش): الأول في إسطنبول، والثاني في الدانوب، والثالث في الروملي، والرابع في الأناضول، والخامس في سورية، والسادس في العراق. والسابع في اليمن. انظر: إحسان آوغلو، إكمال الدين، (محرر)، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، ترجمة صالح سعداوي، القاهرة: مكتبة الشروق. ط٢، ٢٠١٠م، ج١، ص٤١١.



نفسه(٢٢) طرفًا في المؤامرة، وقد جرت استعدادات فعلية مع السفارة الألمانية لالتحاقه بالحملة الحربية عند اجتيازها الحدود [المصرية].

وبصرف النظر عن صعوبة استعادة الحكومة العثمانية سيطرتها على قواتها المسلحة التي فقدتها بعد وصول غوبن وبريسلاو فإن تشجيعها الحملة الخبيثة الجارية عبر الصحافة ووعاظ المساجد ومؤلفي الكراسات الدعائية(٢٣) دليل على أن أعضاءها الأكثرين قوة يتعاطفون مع الحركة المناوئة لبريطانيا. ولدي في الواقع برهان مادي على صدور إيحاء من طلعت بك وجمال باشا ضد بريطانيا العظمى. فقد بدأ استخدام كل وسيلة ممكنة لتضليل الرأي العام وجذبه نحو ألمانيا وإثارته ضد الحلفاء بتغاض من السلطات التركية وبتعاونها في أحيان كثيرة. فغدت كل الصحف التركية الصادرة في إسطنبول ألسنة حال ألمانية، تعظم أي نصر

(٢٢) مات خديوي مصر توفيق باشا سنة ١٨٩٢م وخلفه ابنه عباس حلمي باشا الثاني. وقد خلعه البريطانيون بسبب ميوله العثمانية عند إعلانها الحرب على الدولة العثمانية في نوفمبر ١٩١٤م. انظر:

Muhammad Ali and his Successors Britannica Academic Edition: http://www.britannica.com/

(٢٣) نظمت عند دخول الدولة العثمانية الحرب حملة دعائية واسعة تدعو للجهاد وقتال دول الحلفاء بإشراف وتمويل ألماني. وقد أسهم في قيادتها المستشرق الألماني المعروف ماكس فون أوبنهايم. راجع:

Oppenheim McMeekin, Sean, The Berlin - Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power, p. 90: *books.google.ae/books.*

ألماني أو نمساوي حقيقي أو وهمي، وتقلل من شأن أي أمر مواتٍ للحلفاء.

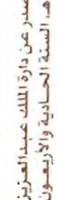
ستظهر المرفقات التي ستصلكم مع أول رسالة لاحقة مدى عمق هوة السفاهة التي انحدرت إليها بعض الصحف الأكثر فسادًا وجموحًا في هجومها الضاري على بريطانيا العظمى، كما ستظهر مقدار التحيز المنافي للتوازن الذي أظهرته رقابة الصحافة خلال ممارستها لسلطاتها غير المحدودة عمليًا. ولم تكن الصحف الصادرة في الولايات أقل حماسة في موالاتها للألمان. كما وضعت الوكالة البرقية شبه الرسمية التي تديرها عمليًا وزارة الداخلية تحت تصرف الدعاية الألمانية. وقد استخدمت وسائل النشر تلك البرقية على نطاق واسع لترويج ظلامة تركيا الملموسة والواقعية تجاه بريطانيا العظمى دون بقية الدول الأوروبية، وهي المتمثلة في احتجاز "السلطان عثمان" و"الرشادية" عند بدء الحرب الأوروبية(٢٤). كما بعثت من طيات الماضي مظالم أخرى أقدم

(٢٤) كانت الحكومة العثمانية قد تعاقدت مع مؤسسة بريطانية لبناء بارجتين حربيتين ودفعت ثمنهما كاملاً بعد أن جمعته بحملة تبرعات عامة. وحين كانت البارجتان على وشك التسليم أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا في ٥ من أغسطس ١٩١٤م فضمت البارجتين لأسطولها دون وجه حق قانوني.

http://www.nzhistory.net.nz/war/ottoman-empire/enters-the-war

وقد أثار ذلك التصرف استياءً واسعًا لدى الحكومة العثمانية والرأي العام العثماني وصبت صحف إسطنبول في مقالاتها جام غضبها على بريطانيا. راجع : رضا، محمد رشيد، كيف دخلت الدولة العثمانية في الحرب، في: "**مجلة المنار**"، مجلد ١٧، ص ٩٥٨،

http://islamport.com/w/amm/web/1306/2845.htm



عـهـدًا وأقل واقـعـيـة، واسـتكمل اتهـام بـريطانيـا العظمى وحليفاتها بسلسلة من تشويهات للحقيقة وتحريفات مصممة لإظهـارها عـدوًا لا لـتركـيـا فـحسب بل لـلإسـلام كله. وغـدت هجمـات من هذا النوع متكررة خـصوصًا في النصف الثاني من أكـتـوبر، وكـانـت موحى بهـا من ألمانيـا دون شـك. ولم تؤد احـتـجـاجـاتي العـاجلة إلى الصـدر الأعظـم وطلعت بك شـفـويًا وكتابيًا سوى إلى لجم الحملة وقتيًا فقط.

وربما يـبـدو فـشل الـسـاعـين لتـوريط تـركـيـا في الحـرب الأوربيـة في تحـقـيق هدفـهم - بعـد أن امتـد نشـاطهم أمـدًا طويلاً - أمـرًا غـريبًـا مع أنهم مـدعـومـون ومـعـبـؤون بذلك الشكل. ولكن ذلك الفشل ناتج عن أسـبـاب متنوعـة، منها ما أشرت له آنفًا من كون الجماعة المتمسكة بالحياد لا يمكن تجاهلها بسهولة مع أنها تعوزها الوسائل المادية لفرض رأيها. وتلتقي أفكار رجالٍ هذه الجماعة بصرف النظر عن مسبباتها مع رأي أقل صقلاً وأوهى ظهورًا لكتلة ظلت لا تحبذ خوض حرب ضد انكلترا وفرنسا بالرغم من إحساسها بالجرح من إقدام انكلترا على منع تسليم "السلطان عثمان" و"الرشادية". وكان لي شرف الإفادة في رسالتي المؤرخة في الثاني والعشرين من سبتمبر عن أن السلطان نفسه عبر بصراحة وتأكيد عن هذا الشعور خلال محادثة معي. وليس هناك إلا قليل شك في أن الصدر الأعظم مارس كل تأثيره لأجل الإبقاء على الحياد. كما أن جاويد بك وزير المالية غدا قبيل حسم الأمر عقبة كأداء أمام تنفيذ الخطة الألمانية إلى درجة إرسال أوامر من برلين لقسره على الاستقالة. إذ كان تأثيره مرجحًا لكفة الحياد

بصفته ممثلاً للعنصر اليهودي(٢٥)، كما دعم خيار السلام بحججه المستندة إلى حقيقة أن تركيا كانت مفلسةً كليا بالفعل(٢٦) وليست في وضع يؤهلها لخوض حرب ضد الحلفاء.

بدا أغلب الرجال الترك البارزين مقتنعين جديًا بانتصار ألمانيا النهائي، ويكاد يتعذر هز ثقتهم تلك بمسار الأحداث الفعلي في ميداني الحرب الرئيسين. ولكن الأعمق تفكيرًا من بينهم أدركوا أنه حتى لو انتصرت ألمانيا فإن حقيقة قتال تركيا إلى جانبها لن تضمن بالضرورة حصول الإمبراطورية العثمانية على أي فائدة. وقد كان بإمكان الألمان واقعيًا إجبار تركيا في أي لحظة يشاؤون على السير في ركابهم، ولكنهم عدوا فعل ذلك قبل فشل كل وسائل الإقناع أمرًا منافيًا للحصافة بشكل جلي. وكان من الواضح دون لبس أن القيصر، الذي هلل له رجال الجامعة الإسلامية من مشايعي

(٢٥) يبدو مستغربًا عد السفير البريطاني أحمد جاويد بك ممثلاً للعنصر اليهودي مع أنه هو وأسلافه غدوا مسلمين منذ زمن بعيد.

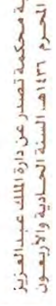
(٢٦) بحلول سنة ١٩١٤م بلغ مجموع الدين المترتب على الحكومة العثمانية مائة وأربعين مليون ليرة ذهبية عثمانية، وهو ما يعادل ستين بالمائة تقريبًا من إجمالي الناتج المحلي للدولة

Turkey in the First World War - Ottoman Public Debt:

http://www.turkeysrar.com/economy/publicdebts.htm

وقد كانت الدولة مفلسة ماليًا قبيل دخولها الحرب، وهذا ما جعل أنور باشا يبلغ السفير الألماني في الحادي عشر من أكتوبر ١٩١٤م أن قرار دخول الحرب معلق على استلام مبلغ مليوني ليرة ذهبية عثمانية من برلين. انظر:

The beginnings, p. 70 & pp. 91-92.



الألمان بصفته أملاً للإسلام[٢٧] ووصف في بعض الأماكن بالورع لدرجة لا يكاد يتميز معها عن المسلم الحقيقي، لا يمكنه إلا مضطرًا المجازفة بصدم مشاعر العالم الإسلامي باستخدام مدافع غوبن لتقييد يدي السلطان - الخليفة، في حين يأمل في استثارة ذلك العالمِ لتحطيم إنكلترا وروسيا وفرنسا. ولكن العامل الأكثر أهميةً من سواه في تأخير تنفيذ الخطط الألمانية كان هو النزوع الفطري لرجال الدولة الترك للمماطلة أملاً في استعداء طرف ضد آخر بما يمكِّنهم من مزيد من الكسب جراء عنف المنافسة بين الطرفين. وقد مكنني ذلك أنا وزميلي الفرنسي والروسي من إرجاء الأزمة حتى تفجرت في النهاية ولكن بطريقة فتحت عيون العالم الإسلامي على الطبيعة الحقيقية للمؤامرة.

وعلى الرغم من هزال الفرص المواتية لنا كان من الجلي لي ولزميلي الفرنسي والروسي أن واجبنا يقتضي دعم تلك القوى المناضلة في الخفاء وتشجيعها من أجل الإبقاء على السلام. وقد ترتب على هذه السياسة بالضرورة قبول أعمال من جانب الحكومة العثمانية تتطلب في ظروف اعتيادية تصرفًا يفوق الاحتجاج وسعيًا لحفظ حقوقنا، ويغدو معها من السهل تهيئة مناسبة لقطع العلاقات. ولكن الصبر الذي أبداه الحلفاء تبرره النتائج المتحققة. فبالرغم من الفشل في تفادي

(٢٧) عن علو شأن القيصر الألماني ولهلم الثاني في أعين العثمانيين والمسلمين من أنصار الجامعة الإسلامية، انظر: العجيلي، التليلي، **صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي ١٨٧٦- ١٩١٨م**، تونس: دار الجنوب للنشر، ٢٠٠٥م، ص١٣٩-١٤١.

الحرب في النهاية حقق تأخير بدئها هدفين لهما أهمية رئيسة. إذ غدت الدول الحليفة الآن في وضع يمكنها من التعامل مع المشكلة بأيد طليقة. كما أجبرت ألمانيا من جانب آخر على كشف أوراقها والعمل منفردة بعيدًا عن أغلبية الوزارة التركية.

اضطرت ألمانيا إلى تكثيف ضغطها بدرجة أكبر على الترك من جراء تطور الأحداث في ميدان الحرب الرئيس والضرورة الملحة للقيام بهجوم مضلل في الشرق الأدنى من أجل تحويل الأنظار. وقد اتخذ ضغطها شكلاً آخر خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من أكتوبر ورمت بثقل جديد في الميزان حين وصلت إلى السفير الألماني في إسطنبول تحت ستار كثيف من السرية كميات كبيرة من السبائك الذهبية وأودعت بحراسة عسكرية في فرع البنك الألماني (Deutsche Bank). وقد قدر المبلغ الإجمالي بنحو أربعة ملايين ليرة، وهو مبلغ يفوق ما تتطلبه إعالة المؤسسات الحربية والبحرية الألمانية. وكان لدي كل ما يدعو إلى الاعتقاد بأن ترتيبًا محددًا قد جرى التوصل إليه بين الألمان ومجموعة من الوزراء تضم أنور باشا وطلعت بك وجمال باشا يقضي بإعلان تركيا الحرب حالما يصل الاحتياطي المالي العثماني ذلك الرقم. وقد ثبتت صحة معلوماتي هذه بحقيقة أن الذروة لم يتوصل إليها حتى قرابة منتصف الأسبوع الثالث من أكتوبر حين جرى تخيير الصدر الأعظم بين الاشتراك في الجريمة أو الاستقالة. ولكن الحائل دون تنفيذ الخطة لم يكن سوى الانتصارات

الروسية على الفستولا (Vistula)[٢٨] أو سبب ما آخر أكثر غموضًا.

ومهما كانت الوقائع الدقيقة التي جرت خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من أكتوبر فإن من المؤكد أن المتآمرين الألمان كانوا قد أدركوا في السادس والعشرين من ذلك الشهر أو قريبًا من ذلك التاريخ وجوب زيادة سرعة التحرك بتدابير أكثر عنفًا مما استخدموه لحينه. إذ توصلوا إلى قناعة بعدم جدوى بذل أي محاولات أخرى لإقناع الصدر الأعظم والحكومة التركية كلها بأفكارهم التي تقود نحو إعلان الحرب. فعقد بعد ظهر ذلك اليوم اجتماع مهم لقادة جمعية الاتحاد والترقي بحضور أنور باشا. ولم يسفر الاجتماع إلا عن قرار واحد فقط هو إيفاد خليل بك[٢٩] رئيس مجلس المبعوثان إلى برلين. وقد عُدّ هذا القرار لدى الأوساط المطلعة عليه انتصارًا جزئيًا لجماعة السلام ومحاولةً جديدةً لكسب مزيد من الوقت إما لمجرد التسويف أو سعيًا وراء الحصول على

---

(٢٨) انتصرت القوات الروسية على قوات النمسا - المجر في هذه المعركة التي تسمى أيضًا معركة وارشو. انظر:

List of Lands Wars and Battles from World War 1: www.pubquizreference.co.uk retrieved on 2/3/2014 at 10:30 am.

(٢٩) من قادة جمعية الاتحاد والترقي. وكان رئيس مجلس المبعوثان. وقد شارك مع كبار القادة الاتحاديين في المباحثات مع السفير الألماني في إسطنبول وأدت إلى عقد التحالف العثماني- الألماني الممهد لدخول الدولة العثمانية الحرب.

The beginnings, p. 92.

عروض أكثر صلابة من ألمانيا. ومهما كان الهدف فإن خليل بك لم يغادر قط لأداء مهمته، ويعتقد أن ذلك ناتج عن طرده بشكل فظ غير معتاد من قبل الممثل الألماني في إسطنبول. وكانت إسطنبول عمومًا تطمئن نفسها بفكرة عدم إمكان حدوث شيء حقًا حتى نهاية احتفالات عيد الأضحى التي تمتد أربعة أيام بدءًا من يوم الثلاثين من أكتوبر(٣٠).

ولكن ذلك الاطمئنان تبدد بوقوع حادثين في غاية الأهمية؛ إذ استلمت في صباح التاسع والعشرين خبرًا من مصر عن غارة في شبه جزيرة سيناء شنتها قوة مسلحة مؤلفة من ألفي بدوي فاحتلت آبار مغدبه (Magdaba)(٣١) في إطار سعيها للهجوم على قناة السويس. وعندما علمت بالخبر توجهت على الفور إلى الشاليه البحري (yali) للصدر الأعظم لإشعاره بالعواقب الوخيمة التي لابد أن تترتب على ذلك ما لم تسحب الحملة فورًا. وقد تلقى سموه النبأ بمظهر المتفاجئ تمامًا، وأنكر بشدة أي معرفة له بالأمر وأعطاني تأكيدًا جازمًا بأنه سيصدر أوامر فورية بسحب المجموعة الغازية إذا كانت الواقعة حقيقية. وكرر التأكيد بأن لا شيءً أبعد عن نية حكومته من حرب مع بريطانيا العظمى، قائلاً إن قيام أي من أعضاء حكومته بتنظيم حملة من هذا النوع

(٣٠) وقع عيد الأضحى سنة ١٣٣٢هـ في ٣٠/١٠/١٩١٤م.

(٣١) تبعد ثلاثين ميلاً عن العريش. راجع:

The mounted war in Palestine : Campaign in Sinai, in Dominion, Vol. 12, Issue 241, 5 July 1919, p. 9: http://paperspast.natlib.govt.nz/

أمر غير قابل للتصديق، ولذلك فإنه يشعر بثقة في أنه إذا حدث أمر كهذا بالفعل فيمكن أن يكون غارةً قام بها بدو لا يقدرون المسؤولية. فأظهرت لسموه خشيتي من أنه يخادع نفسه، وذكرته بحالات كثيرة قطع لي فيها تأكيدات مماثلة، وبعدم تنفيذ أوامر كان قد أصدرها في مناسبات سابقة. وحذرته من العواقب الوخيمة التي ستلحق بالإمبراطورية العثمانية من جراء أزمة لم يعد بالإمكان الآن تأجيلها طويلاً ما لم يكن هو وأنصار السلام مستعدين لإظهار مقاومة ما جادة للمؤامرة التي أنا مطلع عليها بصورة كاملة وهي تهدف لتوريط الإمبراطورية توريطاً لا يمكن تفاديه في الحرب العامة. ومن هذه المقابلة، كما من جميع مقابلاتي السابقة مع الصدر الأعظم، خرجت بانطباع عن عجزه عن إدراك الوقائع، أو عن تحرير نفسه من وهم الإيمان بقدرته على ممارسة سلطته بشكل فاعل خلال أزمة خطيرة حقاً، مع ما مر به من تجارب بائسة كثيرة.

وكان الحادث الآخر ذو الأهمية الفائقة هو الهجوم على أوديسا وموانئ روسية أخرى واقعة على البحر الأسود صباح يوم التاسع والعشرين من أكتوبر نفسه. وغدا الآن مؤكداً صدور الأوامر الفعلية لذلك الهجوم من الأميرال الألماني[٣٢] مساء السابع

---

(٣٢) هو الأدميرال ولهلم سوشون (Souchon) قائد غوبن وبريسلاو اللتين ضمتا بعد دخولهما الدردنيل للبحرية العثمانية. وقد عينه وزير البحرية جمال باشا قائداً للبحرية العثمانية انظر:

http://www.nzhistory.net.nz/war/ottoman-empire/enters-the-war

وتحمله دراسة أكاديمية تركية حديثة أكثر من أي شخص آخر مسؤولية جر الدولة العثمانية لدخول الحرب. إذ كان ينفذ أوامر =

والعشرين من أكتوبر، ولكن إلى ما بعد تنفيذها فعلاً، أي إلى ما بعد ظهر التاسع والعشرين من أكتوبر حين أبرق لي القنصل العام المستر روبرتس (Roberts)(٣٣) أخبار الغارة على أوديسا، لم ندرك أنا وزميلاي الروسي والفرنسي أن السيف سبق العذل فعلا وأن الأزمة التي خشيناها طويلا وجاهدنا لتفاديها قد وقعت. وفور تلقي تلك الأخبار قمت أنا والمسيو بومبار (Bompard)(٣٤)

= صريحة من برلين بالعمل على بدء الأعمال العدائية ضد روسيا حالما يتيسر له ذلك لتأمين دخول الدولة العثمانية الحرب فورًا. وتعاون لتحقيق ذلك الهدف مع وزير الحربية أنور باشا الذي أمره بإدخال سفن الأسطول إلى البحر الأسود، ولكن مجلس الوزراء رفض التصديق على ذلك الأمر في الرابع عشر من سبتمبر. فغضب الأدميرال وهدد بالتصرف على مسؤوليته إن لم ينل التفويض الرسمي، وهو ما جعل مجلس الوزراء يتراجع ويصدر له في الحادي والعشرين من الشهر الإذن بإدخال الأسطول إلى البحر الأسود. وظل هناك ينتظر الأمر النهائي بالهجوم، وبعد مباحثات سرية بين أنور باشا والسفير الألماني أصدر أنور في الخامس والعشرين من أكتوبر أمرًا مكتوبًا لسوشون بإجراء مناورات بسفن الأسطول كلها في البحر الأسود والهجوم على الأسطول الروسي إن وجد فرصة سانحة. ولم يعلم أنور بأمره هذا سوى صاحبيه طلعت وجمال دون الصدر الأعظم وبقية الوزراء. راجع:

The beginnings, pp.85 - 94.

(٣٣) القنصل العام البريطاني في ميناء أوديسا الروسي على البحر الأسود.

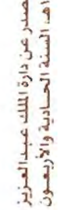
British Documents on the Origins of the War,1898-1914:

http://net.lib.byu.edu/

(٣٤) السفير الفرنسي في إسطنبول منذ يوليو ١٩٠٩م. انظر:

The Great Powers and the End of Ottoman Empire:

http://books.google.ae/books



بزيارة المستر دي جيرس (de Giers)(٣٥) وقررنا الطلب من حكومتينا تفويضنا بتخيير الباب العالي بين قطع العلاقات أو طرده البحرية والبعثات الحربية الألمانية. ولكن زميلي الروسي أعلمني صباح الثلاثين بتلقيه أوامر فورية من حكومته تلزمه بطلب جواز سفره(٣٦). وبناءً على ذلك كتب إلى الصدر الأعظم طالبًا مقابلته، فرد عليه سموه ملتمسًا تأجيل المقابلة إلى اليوم الموالي نظرًا لتوعك صحته. وحيث إن الأوامر التي تلقاها زميلي الروسي من حكومته ذات صيغة قاطعة اضطر إلى توجيه مذكرة إلى الصدر الأعظم طالبًا تسليمه جواز سفره. وكنت قد اقترحت على حكومتي سابقًا التزام سفراء الدول الحليفة بمغادرة إسطنبول معًا في وقت واحد إذا أجبر أي واحد منهم على طلب جواز سفره نتيجة إعلان حرب تركي أو عمل عدائي لا يطاق. وبناءً على ذلك تلقينا أنا وزميلي الفرنسي أوامر من حكومتينا بالتضامن مع السفير الروسي، فقررنا دون تأخير إضافي الكتابة إلى الصدر الأعظم طالبين بدورنا مقابلته لنتمكن من تنفيذ أوامر حكومتينا.

---

(٣٥) السفير الروسي في إسطنبول.

(٣٦) يبدو أن السلطات العثمانية تلكأت في تسليم السفراء جوازات سفرهم على أمل حدوث طارئ في اللحظات الأخيرة يصرفهم عن فكرة المغادرة. ولكنها رضخت لرغبتهم حين أعلنوا عزمهم على المغادرة بالجوازات أو بدونها. راجع :

The Second Belgian Grey book, Parts 1 & 2 (Section 10): http://libcudl.colorado.edu/wwi/pdf

ونظرًا لتوعك سموه لم نكن نتوقع منه استقبالنا ذلك اليوم، ولكنه بعد ساعات قليلة أرسل إلينا كلمة مفادها أنه سيكون برغم توعكه سعيدًا برؤيتنا. كما أنه مع اعتذاره في وقت أبكر استقبل السفير الروسي أيضًا بعد ظهر اليوم نفسه. وزامنت مقابلتي للصدر الأعظم جزئيًا مقابلة المستر دي جيرس وسبقت مقابلة المسيو بومبار. وسادها جو من الحزن، أقنعني سموه خلالها بصدق تنصله من المعرفة أو الإسهام في الأحداث التي قادت إلى قطع العلاقات. وتضرع لدفعي إلى الاعتقاد بأن الوضع كان لحينه قابلاً للإصلاح، فرددت بأن زمن التأكيدات قد انقضى، مبينًا أن الأزمة التي تنبأت بها لسموه في كل لقاء جرى بيننا تقريبًا منذ عودتي [إلى مقر عملي] قد وقعت بالفعل، وأنه ما لم يقدَّم تكفيٌر فوري كاف عما حدث بطرد البعثات الألمانية، وهو الأمر الوحيد الذي يمكنه منع تكرار المحاولات ضد الأراضي المصرية والهجمات على روسيا، فإن الحرب مع الحلفاء أمر يتعذر اجتنابه. وأضفت أن زميلي الروسي طلب بالفعل جواز سفره، ويجب علي تنفيذًا للأوامر التي تسلمتها أن أحذو حذوه. فأكد الصدر الأعظم من جديد أنه قادر لحينه على إبطال ما فعلته جماعة الحرب دون علمه أو موافقته. وحين تشككت فيما هو متاح لديه من وسائل رد بوجود قوى معنوية تقف إلى جانبه ولا يمكن أن تهزم، فضلاً عن تصميمه على النضال حتى النهاية. ولكنه في الحقيقة لم يلمح لإمكانية طرد فوري للبعثة الألمانية، واكتفى بإخباري باجتماع لمجلس الوزراء سيعقد في منزله ذلك المساء سيناقش فيه زملاءه دعم تصميمه على تجنب الحرب مع دول الحلفاء.

وقد عقد الاجتماع بالفعل، وكما تنبأ دعمت أغلبية الوزراء الصدر الأعظم في حثه القوي على التمسك بالسلم، وهو حث أثنى عليه جاويد بك. ولكن عجز وزراء السلطان عن فعل ما هو أكثر من التصويت في المجلس كان جليًا؛ إذ نوقشت قضية طرد ضباط البحرية الألمان، ولكن لم يتخذ قرار بفعل ذلك، ولم يجرؤ وزير على مجرد طرح اقتراح بترحيل البعثة العسكرية. وخلال الاستراحة اتخذت جماعة الحرب قرارها النهائي بالمضي قدمًا عن طريق نشر بلاغ يفيد بأن أعمال العداء الأولى في البحر الأسود جاءت من الجانب الروسي. وقد نجح هذا التلفيق في تضليل كثير من الجمهور مع كذبه وبشاعة قلبه للحقائق. وليس من الممكن البرهنة على تحديد أي من الوزراء كان على علم سابق بانقلاب (coup) الأميرال الألماني، ولكن ما يمكن عده مؤكدًا هو اطلاع أنور باشا على الأمر. ويحتمل جدًا أن طلعت بك كان أيضًا شريكًا في الجريمة. وكانت حكاية الاستفزاز الروسي بشكل جلي مخترعة تاليًا لتبرير ما حدث، ولو كان البيان الرسمي للحكومة الروسية غير كاف لتفنيدها فإنني أستطيع تقديم بينة مستقلة تظهر أن الأوامر ببدء العمليات الحربية أصدرت في مدخل مضيق البسفور مساء السابع والعشرين من أكتوبر نتيجة مؤامرة دبرت هناك بين الممثلين الألمان في إسطنبول وزمرة تركية صغيرة مجردة من المبادئ الخلقية.

غادر زميلي الروسي إسطنبول دون حادث مساء الحادي والثلاثين من أكتوبر. وهيأت الاستعدادات آخر الأمر

لمغادرتي في مساء اليوم الموالي حين غادرت بالفعل إلى ديدياغش (Dedeagatch)[٣٧]. وصحبني طاقمي المؤلف من ستين موظفًا هم وعائلاتهم فضلاً عن مستشارين بريطانيين عاملين في خدمة الحكومة التركية وبعض الرعايا البريطانيين الآخرين. وغادر زميلي الفرنسي وطاقمه في القطار نفسه. ونتيجة لرفض جائر أعلنته السلطات الحربية في آخر لحظة للسماح بمغادرة عدد كبير من الرعايا البريطانيين والفرنسيين كانوا سيغادرون بقطار يسبق القطار المخصص لي تحولت محطة القطار لبضع ساعات مسرحًا لفوضى واضطراب لا يمكن وصفهما. وقد تجاهلت السلطات العثمانية احتجاجاتي واحتجاجات السفير الفرنسي، فوافقنا بعد نقاش طويل على ترك الأمر بين يدي سفير الولايات المتحدة الذي تعهد باستخدام كل نفوذه لترتيب مغادرة رفاقنا الرعايا في اليوم الموالي. أرسل معاون رئيس التشريفات (the Sous-Chef de Protocole) التابع للباب العالي والسكرتير الخاص الأكبر (the Chef de Cabinet Particulier) التابع لوزارة الخارجية لتوديع المسيو بومبار وتوديعي في محطة القطار. ورافقنا سكرتيران من الإدارة السياسية في وزارة الخارجية حتى الحدود.

(٣٧) تسمى حاليًا ألكساندروبولس، وهي ميناء يوناني على بحر إيجة ومحطة قطار على بعد عشرة أميال من الحدود التركية. انظر:
Greece Today : The Aftermath of Refugee Impact:
http://books.google.ae/books



إن العون الذي تلقيته من المستر مورغنتاو (Morgen-thau)[٣٨] سفير الولايات المتحدة يفوق الوصف؛ فلقد كانت الصعاب التي نشأت خلال اليومين الأخيرين على وجه الخصوص نتيجة للوضع الشاذ ستغدو أكبر بمعيار لا مثيل له لولا عونه الذي لا يثمن وجهوده غير المتناهية لمصلحتي ومصلحة طاقمي. إننا مدينون ديناً باهظاً لا لشخص المستر مورغنتاو فقط، بل لكل عضو في سفارة الولايات المتحدة، إذ أسفرت جهودهم عن السماح للرعايا البريطانيين والفرنسيين الذين احتجزوا في محطة القطار ليلة سفري بالمغادرة في المساء الموالي.

أود قبل ختام هذا المرسل تسجيل تقديري للشجاعة التي أبدتها الجالية البريطانية في إسطنبول كما في مدن أخرى خلال كل تلك المدة الصعبة، وهي شجاعة أثلجت صدري. فقد واجه قسم كبير من أفراد الجالية عناءً شديداً في تسيير أعمالهم من جراء عدم استقرار الوضع في تركيا. وكابد كثيرون بشكل فادح وصورة أكثر مباشرة من جراء

(٣٨) هنري مورغنتاو سفير الولايات المتحدة الأمريكية لدى الدولة العثمانية بين سبتمبر ١٩١٣م ويوليو ١٩١٦م. راجع: الغالبي، سلوى، **العلاقات العثمانية الأمريكية ١٨٣٠- ١٩١٨م**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢م، ص١٦٠. وقد ظلت الولايات المتحدة على الحياد في الحرب حتى إبريل ١٩١٧م فحافظت على علاقاتها الدبلوماسية مع الدولة العثمانية حتى قطعها العثمانيون في العشرين من ذلك الشهر. ولكن بقي السلم قائمًا بين الدولتين حتى نهاية الحرب. وقد تولت السفارة الأمريكية رعاية مصالح دول الحلفاء في الدولة العثمانية بعد قطع العلاقات الدبلوماسية بينها وبين تلك الدول. انظر: المرجع نفسه، ص١٧٧-١٨١.

المصــادرات العـسكرية التي طبـقت منذ مطلع أغـسطس بطريقة استبدادية لا يمكن تخيلها(٣٩). ووجد الجميع أنفسهم بإبطال الامتيازات (the Capitulations)(٤٠) مجـردين خلال لحظة واحـدة من الامتيازات الموروثة التي صانت أشـخاص الأجـانب وممتلكاتهم من النزوات والظلم. ولكنهم قاطبـة واجهوا تلك المحن بثبات رجولي وحكمة.

كنت بُعيد عودتي لمنصبي قد أوصيت الرعايا البريطانيين ممن طلبــوا نصـــحي بأن يرسلوا إلى الوطن عند سنوح الفرصة أفراد عائلاتهم الذين ليس لديهم سبب مهم يقتضي بقاءهم. فغادر عدد معين منهم خلال الخريف، وغادر كثيرون

---

(٣٩) شرعت الحكومة العثمانية في السابع والعشرين من يونيو ١٩١٤م في قانون (التكاليف الحربية) الذي يخولها مصادرة وسائل النقل والتجهيزات الأخرى الضرورية كافة من المدنيين وتعويضهم بمبالغ تقررها هي. راجع:

The Ottoman Mobilization of Manpower in the First World War: http://books.google.ae/books.

وقد أفاد الوزير المفوض البلجيكي في إسطنبول في تقرير رفعه لوزير خارجيته في السابع من سبتمبر ١٩١٤م أن المصادرات اتخذت طابعًا مدمرًا فامتدت إلى محتويات الحوانيت ومخازن الكمارك وشملت كل شيء من السيارات حتى مواد الحمام الخاصة بالسيدات.

The Second Belgian Grey Book, Part 1 & 2 (Section 10): http://libcudl.colorado.edu/wwi/pdf

(٤٠) أصدرت الحكومة العثمانية في التاسع من سبتمبر ١٩١٤م قرارًا بإلغاء الامتيازات الأجنبية المعمول بها منذ قرون. وقد احتجت جميع الدول الأوربية والولايات المتحدة على ذلك القرار. راجع:

The beginnings, pp.89-90.



لاحقًا. أما أولئك الذين اختاروا البقاء أو لم يكونوا في وضع يمكنهم من المغادرة فبقوا تحت حماية سفير الولايات المتحدة. وفيما يتعلق بالجالية البريطانية في بغداد(٤١) أمرت وكيل القنصل العام البريطاني في بغداد في وقت مبكر من أكتوبر باستئجار باخرة لنقل أي رعايا بريطانيين راغبين في المغادرة إلى ساحل البحر [في الخليج]. وانتفع عدد كبير من الرعايا البريطانيين والهنود البريطانيين من هذه الفرصة التي أتيحت لهم.

لا يسعني إنهاء هذا التقرير دون أن أسترعي انتباهكم إلى الحماسة التي أبداها صغار الموظفين من طاقمي، ومنهم المستر أوفي (Ovey) واللورد جيرالد ولسلي (Wellesley) والمستر تشارلس لستر (Lister) والمستر توماس (Thomas) والمستر ولسن (Wilson) والمستر أستيل Astell، وكذلك المستر فولر (Fuller) مؤرشف سفارة جلالته، في أداء واجباتهم في مبنى السفارة. يضاف إلى ذلك العمل القدير بحماسة ضميرية لأعضاء قسم الترجمة (the Dragomanate) وأعضاء القنصلية العامة.

كما تلقت السفارة دعمًا طوعيًا كبيرًا تلطف به القاضي كيتر (Cator)، والموقر كانون وايتهاوس (Whitehouse) قسيس سفارة جلالته، والدكتور كليمو (Clemow) طبيب

---

(٤١) عن وضع الجالية البريطانية في بغداد حينئذ راجع: السعدون، خالد، **الصراع حول رأس الخليج العربي**، بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨م، ص٥٣٥ - ٥٥٩.

سفارة جلالته، فضلاً عن المستر ويكلي (Weakley) الملحق التجاري. ولا ينقصني شيء أكثر من التنويه بعمل المقدم كنليف أوين (Owen) الملحق العسكري لسفارة جلالته الذي كان يحصل على معلوماته عن الاستعدادات الحربية بصعوبة بالغة غالبًا.

وأود أن أسجل تقديري العالي لمسلك موظفي جلالته القنصليين في كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية طوال مدة الأزمة كلها. إذ أدوا جميعهم واجباتهم الصعبة غالبًا بحماسة وتعقل. وإنني مدين بشكر خاص للمستر كمبرباتش (Camberbatch) قنصل جلالته العام في بيروت والمستر هيثكوت سميث (Heathcote Smith) وكيل القنصل البريطاني العام في أزمير والمستر بالمر (Palmer) نائب القنصل في الدردنيل لما وفروه لي من معلومات قيمة. كما أود أن أسترعي انتباهكم الخاص للخدمات التي قدمها المستر رايان (Ryan) وكيل المترجم الأول لسفارة جلالته. إذ ساعدتني براعته ومعرفته بتركيا وحكمه الصائب ومثابرته التي لا تكل مساعدة لا تقدر بثمن وتستحق إطراءك الخاص".

وقد تلقى السفير ماليت ردًا على تقريره من وزير الخارجية البريطانية السير إدوارد غري (Grey) بتاريخ الرابع من ١٦ المحرم ١٣٣٣هـ/ ديسمبر ١٩١٤م، ونصه(٤٢): "تلقيت مرسل سعادتك المؤرخ في العشرين من الشهر الماضي، الذي لخصت

(42) IOR, L/P&S/10/463, No. 2, Sir Edward Grey to Sir L. Mallet, dated December 4, 1914.



فيه الأحداث منذ رجوعك إلى منصبك في السادس عشر من أغسطس الماضي حتى مغادرتك في الأول من نوفمبر. ولقد قرأ بتقدير وسرور عظيمين ما ورد فيه عن المساعدة القيمة التي قدمها لسعادتك سفير الولايات المتحدة وكل عضو في سفارة الولايات المتحدة في الظروف الصعبة المحيطة بمغادرتك. وقد التمست بالفعل من حكومة الولايات المتحدة أن تنقل للمستر مورغنتاو شكر حكومة جلالته الصادق على خدمات سعادته القيمة في تلك المناسبة وعلى مساعدته اللاحقة للجالية البريطانية لتمكينها من مغادرة إسطنبول.

وسرني للغاية استلام شهادة سعادتك عن الشجاعة المثيرة للبهجة التي أبدتها الجالية البريطانية في تركيا في ظل ظروف عصيبة بشكل استثنائي. وشاهدت برضا عظيم تقدير سعادتك للخدمات الجليلة لطاقم السفارة والقنصلية ولأعضاء الخدمة القنصلية لجلالته في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كافة. وأرغب أيضًا أن أبدي لسعادتك أعمق إحساسي بما أبديته سعادتك من براعة مشهودة وصبر وتعقل في تنفيذ سياسة حكومة جلالته بمواجهة صعوبات عظيمة. لقد فُرضت الحرب آخر الأمر بأعمال عدائية متعمدة وغير مستفزة شنها الأسطول التركي بإيحاء وأوامر ألمانية على الرغم من رغبة حكومة جلالته بتجنب الحرب مع تركيا. وقد وجهت سعادتك بشكل صائب كل جهودك لتشجيع الأشخاص المتنفذين في إسطنبول ممن يتصفون بالاعتدال والحكمة. وعلى أي حال يعود إلى جهودك - بدرجة ما - عدم وقوع تلك الكارثة المحتمة في وقت أبكر".

الخاتمة:

لا بد أن يساور قارئ تقرير السفير السابق شيء من الريبة في مدى موضوعيته العامة ومقدار تجرده وأمانته في سرد مفردات الوقائع ما دام ذلك التقرير قد نشر على الملأ ووظف للتأثير في الرأي العام، إذ يتطلب ذلك على الأرجح شيئًا من الحذف أو الإضافة أو التعديل لإخفاء بعض الجوانب ذات الطبيعة السرية أو لجعله أكثر تأثيرًا في نفوس العامة من الناس. ولكن هذه الريبة الواجبة لا تحول دون الإقرار بأن مقارنة مضامين التقرير مع الروايات المتواترة في المصادر المستقلة الأخرى تظهر صدقه في إبراز الملامح الرئيسة لصورة الوضع السائد في إسطنبول الذي أدى إلى انسياق الدولة العثمانية نحو دخول الحرب. ولا يعني ذلك انتفاء وجود اختلافات وتباينات بين ما ورد في التقرير وما سجلته تلك المصادر حسب وجهات النظر المتعارضة للكاتبين.

وأبرز تلك الملامح المشتركة تتمثل في ثلاثة أمور يمكن تلخيصها على الوجه الآتي:

أولاً: جرى سباق محموم بين إرادتين متناقضتين في العلن وفي كواليس المشهد السياسي في إسطنبول طوال المدة الواقعة بين أول أغسطس وآخر أكتوبر ١٩١٤م (١٣٣٢/٩/٩ و١٣٣٣/١/١٣هـ). فدول الحلفاء سعت بما تملك من طاقة لإبقاء الدولة العثمانية على الحياد بعيدة عن ميادين القتال لتجنيب الجيوش الروسية عبئًا إضافيًا ولتفادي كثير من التعقيدات السياسية المترتبة على ارتماء الدول العثمانية في



أتون الحرب. في حين كانت ألمانيا قائدة دول الوسط تسعى بشكل حثيث لجر العثمانيين للحرب إلى جانبها لتخفيف الضغط عن الجيوش النمساوية ولإشغال بعض قوات الحلفاء داخل مستعمراتها المسلمة المستثارة بدعوة السلطان - الخليفة إلى الجهاد العام. وقد كسبت ألمانيا نتيجة ذلك السباق لكونها أكثر تجاوبًا مع طموحات القادة العثمانيين ومطالبهم ولخلو سجلها التاريخي مع العثمانيين من ضغائن وذكريات مريرة.

ثانيًا: كان العصر الفاعل في عملية زج الدولة العثمانية في ذلك الصراع الدولي الطاحن زعماء جمعية الاتحاد والترقي المهيمنة على مقدرات الدولة. وتصدر أولئك الزعماء أنور باشا وزير الحربية الذي تمكن من جذب بقية زملائه وإخراجهم من ترددهم. ولم يكن ذلك منه وليد تواطؤ مع الألمان على حساب مصلحة دولته حسبما يستشف من تقرير السفير البريطاني، بل كان نتيجة قناعة راسخة بأن الانضمام للحرب على ما فيه من خسائر وتضحيات أمر يحقق مصالح الدولة العثمانية في النهاية. إذ إن انتصار الألمان المؤكد كما رآه سيحفظ سلامة الدولة ويحقق لها مكاسب سياسية وإقليمية بما يجعلها الدولة الأولى في الشرق كله مثلما ستكون ألمانيا الدولة الأولى في العالم الغربي.

ثالثًا: كانت هناك شخصيات بارزة في صدارة المشهد السياسي العثماني تعارض فكرة دخول الدولة العثمانية

الحرب، ومنها السلطان العثماني وولي عهده والصدر الأعظم وأكثر الوزراء فضلا عن قيادات أخرى. ولو نسقت تلك الشخصيات جهودها وتبنت موقفًا أكثر حزمًا لكبحت جماح تلك الفئة الصغيرة الساعية إلى الحرب. ولكن تفككها وعدم وجود شخصية قيادية قوية بين صفوفها جعلها متسمة بالتردد والخور مستسلمة لإرادة شاب مندفع تحركه روح وطنية متأججة وتداعب مخيلته أحلام واسعة ذاتية وعامة.